الأخوات الجمهوريون

من سلسلة الثورة الثقافية

تعلّموا كيف تتعاملون

الكتاب الأول

الطبعة الأولى يوليو ١٩٨١ رمضان ١٤٠١

تعلّموا كيف تتعاملون

الكتاب الأول

الاهـــــداء :

الى المسلمين عامـــــــــة !!
والسودانيين منهم خاصـــة !!
نهدى هذا الكتاب : (تعلّموا كيف تتعاملـــــون) !!
ان المعصوم قد جعل الدين كلّه فى المعاملة، والاخلاق ..
فهو قد قال : (انما بعثت لأتمم مكـارم الاخـــلاق) !!
وقال : (الدين المعاملـــة) !!
فتعلّموا كيف تتعاملون .. مع الاحياء والاشيـــــاء !!
اشيعوا (السنّة) فى تفاصيل حياتكم اليوميـــــــة !!
ووظفوا هذه الحياة، لخدمة الناس .. ورعاية مصالحهم !!
واعلموا انكم حين تفعلون ذلك انما تخدمون انفسكم !!
انتم بهذا الصنيع تتخلّصون من بقايا الحيوان فيكـم ..
وتحققون انسانيتكـــــــم !!
ثم انكم، انتم بهذا الصنيع، تصبحون روادا للمدنية الجديدة،
تلك المدنية التى لا نجاة للانسانية الا بهـــــــا !!
مدنية السلام ـ مدنية الاســلام !!

بسم الله الرحمن الرحيم

(فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره) .. صدق الله العظيم ..

المقدمـــــــة :

هذا هو الكتاب السادس الذى نصدره من سلسلة (تعلّموا كيف ؟) : ونحن نهدف من اصدار هذه السلسلة الى ان نشيع فى الناس الاسلوب العلمى والعملى لانجاز كل عمل يرمى الى خدمة مصالحهم .. والى انصاب حياتهم ماديا وروحيـــا .. وهذا الاسلوب العلمى يعنى فى المقام الاول بخدمة غـرض الفرد باعانته على توحيد القوى المودعة فى بنيته، وتنميـــة مواهبه، بالصورة التى تحقق له الامن والسعادة .. ثم هـــو يعنى بالجماعة، وانصاب حياتها، واقامة العلائق بين افرادهـا على اساس من الصالحة، ومن السلام، والمحبة .. وذلك عـن طريق تهذيب افرادها، واعطاء كل منهم التصور السليم، والمنهاج الذى بممارسته يستيقن ان مصلحته انما هى فى العمل لمصلحـة الآخرين، ويصبح محبا للآخرين، كلفا بتوصيل الخير اليهـم، وعالما بسبل توصيل هذا الخير ..

ازمتنا ازمة اخـــــلاق :

ان موضوع كتابنا هذا هو : (تعلّموا كيف تتعاملـون) .. ومعالجة موضوع المعاملة بصورة علمية وموضوعية تقتضى منّا ان ننطلق من الواقع الذى نعيشه .. فنبين حجم المشكلة، ونوضح صورة المفارقة للمعاملة السليمة ثم نقدم المستوى المطلوب مـن المعاملة، والوسائل العملية لتحقيقها .

اننا يمكن ان نقول، وبكل تأكيد، ان ازمة الانسانيـــة

الانسانية المعاصرة ، وفى كل بقاع الارض ، انما هى ، فى المكان الاول ، ازمة اخلاق .. ازمة معاملة .. وهى ازمة على مستوى من الحدة ، ومن التعقيد والشمول ، بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ .. ولذلك فهى ازمة حضارة كاملة ، فقد وصلت الحضارة الغربية التكنولوجية الحاضرة الى قمة تطورها المادى ، وفشلت فى تقديم الحلول لمشاكل الانسان المعاصر ، واصبحت ، كل يوم جديد ، تفرز من الازمات ، ومن التناقضات ، ما يهدد الحياة بالخطر .. ولذلك اصبحت البشرية اليوم تقف على مفترق الطرق فاما ان تسلك الطريق الصاعد الى مشارف المدنية والسلام ، او الطريق الهابط الى مزالق الهمجية والحروب . وقد اصبحت الحرب اليوم ، ومع التطور الرهيب الذى تم فى صناعة السلاح تعنى الفناء والدمار .

ثم اننا ، بفضل الله ، ثم بفضل التقدم التكنولوجى ، اصبحنا نعيش فى كوكب موحد ، تقاربت فيه المسافات ، بسبب التطور فى وسائل المواصلات ، والاتصال .. فقد اصبحنا جيرانا متقاربين ، مهما بعدت مواقعنا ، فى اطراف هذا الكوكب الصغير .. فأصبح علينا ان نتحلى بالاخلاق ، وبالمعاملة ، التى تليق بحسن الجوار .. أصبح علينا ان نتوحد اخلاقيا ، كما توحدنا ماديا .

ولكن واقعنا المعاش هو على العكس من ذلك تماما ، فاننا وفى جميع بقاع الارض كما ذكرنا نعيش ازمة اخلاق حادة ، وتعبر هذه الازمة عن نفسها فى العديد من صور الانحرافات السلوكية وصور سوء المعاملة التى لا تكاد تحصى .. فلقد انتشرت الحروب وراجت صناعة السلاح ، حتى اصبحت سوق السلاح من اكبر الاسواق فى العالم .. ويكفى فى التدليل على ازمة الحضارة القائمة ان الانسان اصبح ينفق على السلاح ، وعلى وسائل الدمار ، اضعاف ما ينفق على وسائل السلام والتعمير .. ويمكن

لايضاح هذه الصورة البشعة ان نورد هنا ميزانية الولايات المتحدة للدفاع لهذا العام، لتعطينا تصورا لمبلغ ما يصرف على وسائل الدمار، ولحالة الرعب والخوف من الحرب التي يعيش فيها الانسان المعاصر .. فقد بلغت ميزانية الدفاع في الولايات المتحدة، لهذا العام فقط مائة وستة وثلاثون مليار دولار !! هذه هي ميزانية الولايات المتحدة .. والولايات المتحدة بلد ديمقراطي تناقش ميزانيته في اجهزته الديمقراطية ولذلك فقد امكن ان نعرف، مخصص الدفاع من ميزانيته، اما روسيا فاننا لا نعرف عن ميزانية دفاعها شيئا وذلك لانها بلد تلف السرية اعمالها ولكن قرائن الاحوال تدل على انها تنفق اكثر من ذلك .. ثم اننا نعيش في عالم قد استشرت فيه اعمال العنف والارهاب، والتي تستخدم فيها الاسلحة الحديثة الفتاكة .. وقد شاعت الجريمة، وانتشرت بصورة رهيبة، وتنوعت مجالاتها وميادينها، واصبحت تستخدم احدث الوسائل العلمية .. واصبح الارهاب والاجرام، تقوم بهما جماعات سرية منظمة، مما جعل مكافحتها امرا شديد الصعوبة .. واصبح الناس خصوصا في الدول المتقدمة يعيشون في حالة من عدم الامن، يشعرون معها بخوف دائم على حياتهم .

ودون هذا المستوى من الفساد والانحراف، فان الظلم، واستغلال الانسان لاخيه الانسان، اصبح هو الظاهرة العامة في كل المجتمعات .. وقد اصبح الامر الذي يحكم علائق الناس في كل المجتمعات، بما فيها مجتمعاتنا الاسلامية هو المادة .. فقد اصبح الناس ماديين بصورة اهدرت القيم الانسانية، واختل معها مجرد التصور السليم للفضيلة .. واصبح تحصيل المادة وبكل سبيل، حتى ولو على حساب الآخرين، هو هم الجميع .. وانتشر الكذب والخداع، والرشوة، واستغلال النفوذ، الى آخر هذه الصور من الانحرافات ..

وكل هذه الانحرافات التى ذكرناها، تنطبق على الدول، والمجتمعات، فى العالم الاسلامى .. فقد فارق المسلمون لباب دينهم، فأصبحوا يعيشون على قشور من الاسلام، وعلى قشور من الحضارة الغربية ..

ما السبيل ؟

اننا نعيش فى عالم مضطرب، متوتر وقلق، متلاحق الازمات، فهو لا يكاد يخرج من ازمة، الا ويدخل فى ازمة اخرى .. ونحن اذا حللنا جميع هذه الازمات، وردناها - الى اسبابها الاساسية، نجد انها جميعا ترجع الى أزمة واحدة اساسية هى ازمة الاخلاق .. ولذلك فان مشاكل الانسانية المعاصرة، لا يمكن ان تجد حلها الجذرى، الا بقيام مدنية جديدة، تقوم على القيم الداخلية الدقيقة، فترد الناس الى اصول الاخلاق، بالصورة التى تجعل تحقيق السلام فى الارض ممكنا، فتعين الفرد على تحقيق حريته الداخلية، وتعينه على ان يوظف حياته ليعين افراد المجتمع الآخرين ليحقق كل منهم حريته .

ونحن نرى ان هذه المدنية، التى ترد الناس الى اصول الاخلاق، وتحقق السلام، لا تتوفر الا فى الاسلام .. فى مستوى اصوله، مستوى السنة .. وهذا ما نحن دائما بصدد توضيحه، وتوكيده .

المعاملة ما هى ؟

ان المعاملة، بمعناها العام والشامل، تعنى مواءمة الانسان بين حياته وبيئته، الطبيعية، والاجتماعية .. ولقيام هذه المعاملة لا بد من المذهبية التى تعطى التصور الصحيح للبيئة .. ولا بد من المنهاج العلمى، والعملى، الذى عن طريقه يستطيع الانسان ان يواءم بين حياته وبيئته .

واذا نظرنا الى البيئة نجد انها هى فى الحقيقة بيئة روحية، ذات مظهر مادى .. فقد اظهر العلم التجريبى ان المادة، كما تظهر لنا، ليست هناك، وانما هى طاقة .. وهذه الطاقة هى عند الدين (الارادة) .. ارادة الله، خالق الاكوان، وخالق الانسان .. فالوجود هو ارادة الله تجسدت .. فنحن اذن نعيش محاطين بالمظاهر الالهية، وهذه هى بيئتنا .. فلكى نحقق المعاملة المطلوبة، ونحقق السلام، علينا ان نعرف الله، وان نعرف اسرار صنعه فى الوجود وفينا، هذا الصنع الذى هو بيئتنا .. وسر صنع الله فى كونه هو الحكمة، قال تعالى: (وما خلقنا السموات، والارض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما الا بالحق .. ولكن اكثرهم لا يعلمون) فعبارة (ما خلقناهما الا بالحق) تعنى الا بالحكمة، والحكمة هى وضع الاشياء فى مواضعها .. وهى (نهاية العلم) و (نهاية الرحمة) .. وعجزنا عن المواءمة مع بيئتنا، يأتى من جهلنا بالحكمة، وهذا ما يفيده قوله تعالى: (ولكن اكثرهم لا يعلمون) .. فالرحمة قد تكون فى صورة عذاب، ولكننا، لجهلنا بحكمة العذاب، نرفضها، كما يرفض الطفل المريض الدواء المر، وهو يجهل ان وراء مرارته حلاوة العافية .. وقد قال تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم .. والله يعلم .. وانتم لا تعلمون) .. فلما كنا لا نعلم فعلينا ان نؤمن، ربما نعلم، ولكننا، لجهلنا وادعائنا، نجعل عقولنا حكما على الاشياء، رغم ما عليه هذه العقول من جهل !! ولذلك نحن نحتاج للمنهاج الذى يروض العقول على التواضع، وعلى العباد .. وهذا المنهاج، لا يتوفر الا فى الاسلام فى مستوى السنة، فنحن عن طريق تقليد النبى الكريم، نستطيع ان نتأدب مع الله، ونسير خلفه، فندرك حكمته فى خلقه، فنرضى بها ..

علم، وبذلك تتم لنا المعاملة الصحيحة له تعالى، ولخلقه، ويتم لنا التواؤم مع بيئتنا .

ولما كان امر المعاملة بهذا المستوى من السمو، ومن الشمول - فهو امر الحياة فى جميع مستوياتها وتفاصيلها - فانه ليس من الممكن حصر صور المعاملة فى مثل هذا الكتاب الموجز .. ولذلك سنعنى اساسا، باعطاء التصور السليم للمعاملة، والدافع الذى يدفع الى تحقيقها .. كما سنعنى بتقديم المنهاج الذى عن طريق اتباعه بتجويد يتعلم الفرد كيف يحسن المعاملة مع الآخرين، ومع جميع الاشياء، والاحياء، وذلك من خلال ممارسته لحياته اليومية .. كما اننا سنعرض فى الكتاب بعض القواعد الذهبية التى تعين على تجويد المعاملة .

الانانية العليا والانانية السفلى :

ان التربية، وتهذيب النفس، وترويضها على الاحسان، في المعاملة، يقتضي المعرفة بطبيعة النفس البشرية بالصورة التي تعين على ايجاد الحافز، والدافع، الذي يدفع الافراد لتوظيف حياتهم في خدمة الآخرين .. واول ما تقتضيه المعرفة بطبيعة النفس البشرية في هذا المقام هو ان كل فرد بشري بالضرورة التكوينية انانى، محب لنفسه .. وكماله انما يكمن في هذه الانانية، فهي التي تدفع الى الحركة والعمل، وتقود الى النمو والتطور .. وانانية كل انانى تقع في مستويين .. مستوى الانانية الضيقة المتدثلة الجاهلة، ومستوى الانانية الواسعة، المتسامية العالمة .. فالانانى الجاهل يرى مصلحته في امور تخالف مصالح الجماعة، وهو قد يضحي بمصلحة الجماعة، ليصل الى ما يظنه مصلحته هو .. وهو بذلك يضيع مصلحته هو الحقيقية كما يضيع مصلحة الجماعة .. وهذا هو ما عليه حال الناس اليوم، بصورة عامة .. وهو السر في ازمة الاخلاق، وفي تفشي سوء المعاملة بين الناس .

اما الانانى العالم فهو لا يرى مصلحته الا فيما يستقيم مع مصلحة الآخرين، فهو لذلك، ومن اجل مصلحته الشخصية، يسعى الى خدمة الآخرين، والى تحقيق مصالحهم، وهذا هو السبيل الوحيد لتحقيق المعاملة الانسانية الرفيعة .. وهو امر لا يتم تحقيقه الا عن طريق الاسلام، في مستوى السنة .. وقد وضع الاسلام نفسه، منذ البداية، ضد الانانية الجاهلة، ومع الانانية العالمة، فقد قال المعصوم: (لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .. كما قال: (لا يؤمن احدكم حتى

يكون هواه تبعا لما جئت به) .. وهواه يعني انانيته الجاهلة.. وفي قوله: (ان اعدى اعدائك نفسك التي بين جنبيك)، يعني ان اعدى اعداء نفسك العليا، حيث الانانية العالمة، نفسك السفلى، حيث الانانية الجاهلة .. فكل السلوك، والمعاملة الحسنة، انما يقوم على التخلي من الانانية الجاهلة ومحاربتها، والسير في طريق الانانية العالمة، وهي دائما في اتجاه مصلحة الآخرين .. وهذا الامر يحتاج الى مستوى من دقة الفكر، وقوة الارادة، لا يتوفر الا في نهج السنة.

المعاملة ثمرة العبادة وخلاصتها:

لقد كان كتابنا الاول وكتابنا الثاني من سلسلة (تعلموا كيف ؟) عن الصلاة والصوم، فهما عن العبادة .. اما كتابنا هذا فهو عن المعاملة .. وفي الاسلام العبادة والمعاملة وجهان لعملة واحدة .. فالتشريع الاسلامي يقع على مستويين، مستوى الجماعة ومستوى الفرد: فاما في مستوى الجماعة فيعرف بتشريع المعاملات واما في مستوى الفرد فيعرف بتشريع العبادات .. والسمة الغالبة على تشريع المعاملات انه تشريع ينسق المعاملة بين الفرد والفرد في المجتمع .. والسمة الغالبة على تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والرب، وهما تشريعان مكملان لبعضهما، او هما شطرا شريعة واحدة لا تقوم الا بهما معا .. فليست للعبادة قيمة ان لم تنعكس في معاملة الجماعة معاملة هي، في حد ذاتها، عبادة .. وقد لخص المعصوم هذا الامر حيث قال (الدين المعاملة) .. فكأنما العبادة في الصلوة مدرسة تعد الفرد الاعداد النظري، ثم هو لا يجد فرصة التطبيق العملي الا في سلوكه في الجماعة، وتمرسه بمعاملة افرادها .. ومن هنا تأتي اهمية المعاملة بالنسبة للفرد وتأتي اهمية المجتمع.

فالمجتمع ما كان يمكن ان يتم، منذ البداية الا عن طريق

تقييد الانانية السفلى عند الافراد ، عن طريق العرف والقانون ، والدين او الاخلاق .. وقيام المجتمع اقتضى ايضا ، منذ البداية ان يخدم الافراد بعضهم بعضا ، وبقدر تجويد هذه الخدمة يكون رقى المجتمع ورقى الافراد .. وقد صدق الشاعر الذى قال :

الناس للناس من بدو وحاضرة ،
بعض لبعض ، وان لم يشعروا ، خدم

(فالمجتمع بالنسبة للفرد هو الوسيط الذى فيه يتحرك ، ويمارس العبادة ، ويمتحن الاخلاق ويميز القيم .. وفيه يجد الامن ويستشعر الحب ويباشر التعاون ، والعمل ، ويحصل العلم ، وبالعلم ، والعمل وفق هذا العلم ، يتوكد وجود الفرد ، وتنضج شخصيته ، وتقوى ، وتتحقق حريته ، وتتسع حياته وتخصب) .. فالمعاملة هى ثمرة العبادة وخلاصتها ، والدليل على صحتها او عدم صحتها .. ونحن فى وقتنا الحاضر يجب ان نجعل من العبادة مدرسة فيها نتلقى الطاقة ، والمعرفة ، التى بها نخلص لخدمة الناس .. وعلينا ان نبحث عن ثمرة عبادتنا فى تجدد انفسنا وفى تجويد معاملتنا للآخرين ، فاذا لم نجد من ذلك شيئا ، فلنعلم ان ليس لعبادتنا قيمة ، وهى عبادة غير صحيحة ، ولنبحث عن مواطن العلة فيها لنصححها ، حتى تكون عبادة مثمرة نجد بركتها فى عقولنا وقلوبنا واجسادنا ، ويجد الآخرون بركتها فيما يصلهم منا من خدمة ، وحسن معاملة .

المعاملة هى الصلاة الوسطى :

ان الصلاة هى الصلة بين العبد والرب .. وهذه الصلة تتم من خلال العبادة ، ومن خلال المعاملة .. فالمعاملة فى الاسلام انما هى معاملة لله فى خلقه ، وهى ينبغى ان تتوخى

مرضاته تعالى .. ومن هنا يأتي قولنا أن المعاملة هي في الحقيقة عبادة، بل هي ثمرة العبادة، وخلاصتها، والدليل على صحتها، وقبولها، اوعدم صحتها، وعدم قبولها .. فانت اذا اردت ان تعرف حقيقة عبادة العابد، لا تنظر الى عبادته من صلاة او صوم، ولكن الى ما اثمرته هذه العبادة من معاملة واخلاق، فان المعاملة الصالحة الرفيعة، لا تأتي الا عن عبادة مجودة، كما ان العبادة، اذا لم تثمر معاملة صالحة، فهي لا عبرة بها، وان كثرت .. ومن هنا يتضح ان محل التدين هو المعاملة.

ونحن في كتابنا: (تعلموا كيف تصلون) قد ذكرنا ان للصلاة حضرتين: حضرة (الاحرام)، وحضرة (السلام) .. فحضرة الاحرام هي من تكبيرة الاحرام لوقت الصلاة المعين، وحتى عبارة (السلام عليكم) التي يكون بها الخروج من الصلاة .. اما حضرة السلام، فهي حضرة المعاملة، وهي تبدأ من قولك (السلام عليكم) للخروج من الصلاة المعينة، وحتى تكبيرة الاحرام للدخول في الصلاة المقبلة .. فحضرة السلام هي الصلاة بين الصلاتين، وهي الصلاة الوسطى التي قال عنها تعالى: (حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين) .. وهذا الفهم للصلاة الوسطى يأتي من قول المعصوم: (الدين المعاملة) وقوله: (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) .. فهو بذلك قد جعل الدين كله في المعاملة، والاخلاق .. وهذا التخصيص للمعاملة هو الذي يتناسب مع تخصيص الله للصلاة الوسطى، التي افردها بالعناية الخاصة حين قال: (حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى) ..

وجوهر الصلاة الوسطى حضرة (السلام)، او المعاملة .. هو السلام، ولذلك جعل آخر ما نخرج به من لقائنا ربنا في الصلاة، هو عبارة (السلام عليكم)، وهي نفس العبارة التي علينا

ان نحيى بها بعضنا بعضا ، مع اضمار نية السلام ، والعمل على تحقيقه .. وفى الحديث الشريف : (لكل شىء قلب ، وقلب القرآن يس ، ويس لها قلب) .. وقد عرف العارفون ان قلب يس هو قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) .. وبذلك اصبح السلام هو خلاصة المخلصة فى الاسلام .. والسلام لا يظهر ، ويتحقق ، الا من خلال المعاملة .. وهذا ما جعلنا نقول ان المعاملة هى خلاصة العبادة .. وفى حديث المعصوم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، وكلمة (المسلمون) فى الحديث يتبغى ان تفهم بمعنى الاسلام العام ، الذى ورد عنه قوله تعالى : (افغير دين الله يبغون وله اسلم من فى السموات والارض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟؟) .. فكلمة (المسلمون) ، على ذلك ، تعنى الاحياء ، والاشياء .. فالمسلم من سلمت الاحياء ، والاشياء ، من لسانه ويده ..

بهذا الفهم الذى به تصبح المعاملة هى الصلاة الوسطى ، يتم التقارب بين عبادتنا وبين عادات حياتنا .. وتصبح العبادة والمعاملة ، كل منهما ، يكمل الآخر ، ويصححه .. وبذلك نسير فى طريق العبودية .. والعبودية هى ان نكون كلنا لله .. وفى ذلك قال تعالى يأمر نبيه : (قل : ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله ، رب العالمين ، لا شريك له .. وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين) .. فعلينا جميعا ان نكون هكذا .. وسبيلنا الى ذلك ان نعيش بين حضرتى (الاحرام) ، العبادة ، و (السلام) ، المعاملة ، على ان نراعى الادب فى كلتيهما ، وهو الحضور مع الله ..

والمعاملة التى تقتضيها العبادة المجودة ، والمفضية الى العبودية ، تقوم على ان يؤثر العابد نفسه ، ويقدم ربه .. ولا يستقيم له ذلك الا بأن يؤثر نفسه ، ويؤثر مصلحته الذاتية ،

ويقدم الآخرين، ويرعى مصالحهم .. وهذا يقتضي، في السلوك العملي، في الحياة اليومية، الكثير من القيم السلوكية، مثل الكرم، والتواضع، والزهد، والتخلص من حب السيطرة على الآخرين، الى آخر هذه الفضائل .. ولكن القاعدة المهمة في المعاملة هي الا يغيب اعتبار الآخرين عن ذهن الانسان، وعن تصرفاته .. وان يتوخى دائما ان يعامل كل فرد كغاية في ذاته، وليس كوسيلة لغيره ..

ويجب ان يكون واضحا ان العبادة والمعاملة، انما هما لمصلحة الفرد العابد، في المكان الاول، ولمصلحة الجماعة في المكان الثاني .. اما الله تعالى فهو غني عن العبادة، وعن العباد، وانما نحن المحتاجون، ولذلك فمن احسن في عبادته، وفي معاملته، انما يحسن لنفسه، ومن اساء فعليها .. وفي ذلك يقول تعالى: (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها .. وما ربك بظلام للعبيد) .. ويقول: (ان احسنتم احسنتم لانفسكم، وان اسأتم فلها) ويقول: (يأيها الناس انتم الفقراء الى الله، والله هو الغني الحميد ..)

للمعاملة الحسنة لابد من محاربة الخوف:

والمعاملة الحسنة الحقيقية، هي التي تقوم على اسس ثابتة واصيلة، وتنبع من داخل الفرد بصورة طبيعية، وهي لا تقف عند مجرد الخدمة النافعة للجماعة، وانما ينبغي ان تكون هذه الخدمة النافعة مصحوبة بعاطفة المحبة المتسامية .. هذه المعاملة لكي تتوفر لابد من محاربة الاسباب المعوقة لها داخل النفس البشرية .. وهذه الاسباب ترجع اساسا الى الخوف .. فالخوف هو الاب الشرعي لكل انحرافات السلوك، ويمكن لاي صورة من صور سوء المعاملة ان ترد اليه، فلقيام المعاملة الحسنة لابد من محاربة الخوف .. والخوف ما هو الا نتيجة للجهل، فمحاربته انما تكون

بالعلم ـ العلم بالحقيقة المستورة عنّا بأستار الغيب ـ فانّـا ، لو اطلعنا على الغيب ، لهزمنا الخوف .. والغيب عند التناهي انما هو الله .. فمعرفة اسرار الله ـ (حكمته في فعله) ـ عن طريق تجويد التوحيد ، هي السبيل لمحاربة الخـوف .. وقد جعل الاسلام وكده محاربة الخوف .. فعبارة المعصوم : (رأس الحكمة مخافة الله) تعني ان بداية العلم ان نجمـع مخاوفنا كلّها في الله وحده ، لأنه قال : (قل لن يصيبنا الّا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون) .. وكلمة التوحيد (لا اله الّا الله) التي هي نهج الاسلام ، تعني توحيد الخوف ، ورده الى مصدر واحد بعد أن كان يأتي من كـل جانب .. والعبد يحارب خوفه من مصائب الحياة بالمجاهدة على الرضا بالله ، يقينا منه بأن الله اعلم بما يصلحه منه ، وان المصائب انما هي في الحقيقة صديق في ثياب عدو ، وتوهم العداوة انما يأتي من قلّة علمنا ، وغياب حكمة الله في فعله عنّا .. ووسيلة الرضا انما هي ، في المكان الاول ، الصلاة : (فاصبر على ما يقولون ، وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آنـاء اللّيل ، فسبّح ، واطراف النـهار لعلّك ترضى !!) .. وهذه الآية قد اشتملت على اوقات الصلاة الخمسة وجعلت العلّة منهـا ان ترضى : (لعلّك ترضى) .. فبالصلاة والصبر على ما نكره ، والمجاهدة في مواطن الشدة ، بكل اولئك تدركنا عناية اللـه ، وتفتح علينا من فيوض المعرفة به ، ما يعيننا على الرضا ، والتخلّص من صور السخط ، ومظاهر الخوف .. وبالعلم بالله الذي يعين على التخلّص من الخوف تتوفّر لنا اسباب الصحة الداخليـة ، ويتم القضاء على امراض السلوك المختلفة ، التي تنعكس في سوء معاملتنا للآخرين ، هذه الامراض ، مثل البخل ، والطمع ، والتكبّر ، والكراهية ، والحقد ، الى آخر هذه الصور .. وعندما نتخلّص

من الخوف ومن هذه الامراض ، تنبع معاملتنا للآخرين من نفس سليمة وسوية .. فالصحة النفسية ، هي الاساس للمعاملة السوية .. ولتوفير اسباب هذه الصحة النفسية ، لا بد من سيادة حكم القانون بحيث تقوم علاقات الافراد في المجتمع على اساس من القانون الدستوري ، الذي يوفق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة في آن واحد .. ولا بد من النظام الاشتراكي الذي يؤمن الناس على ارزاقهم ، ويقضي على اسباب الصراع بسبب الرزق .. ولا بد من النظام الديمقراطي الذي يؤمن الناس على حرياتهم ، ويقضي على اسباب الصراع بسبب السلطة .. والسلطة ، والثروة ، هما اكبر اسباب العداوة ، والصراع ، بين البشر ، عبر تاريخ البشر .. ثم لا بد من محو الفوارق بين الناس بسبب العقيدة ، او الجنس ، او العنصر ، او اللون ، ولا بد من قيام الرأي العام السمح الذي لا يضيق بأنماط الشخصيات المتباينة .. وقبل كل ذلك ، وفوق كل ذلك ، لتوفير الصحة النفسية ، وقيام المعاملة السليمة لا بد من منهاج التربية الذي يقضي على انحرافات السلوك ، وعلى اسبابها ، من الخوف ، والجهل .. وهذا المنهاج لا يتوفر الا في الاسلام ، في منهاج التوحيد بتجويد الكلمة (لا اله الا الله) ، عن طريق تقليد النبي المعصوم ..

الفكر هو روح المعاملة :

من اجل تجويد المعاملة لا بد من يقظة الفكر ، ورهافة الشعور .. فيكون الانسان من سعة الخيال ، ومن الرهافة ، بحيث يشعر ان الآخرين هم ايضا حساسون ، وعليه الا يتسبب في ايذائهم ، او جرح شعورهم ، بأي صورة من الصور .. والانسان المحسن يألم لألم الآخرين ، ويفرح لفرحهم ، فهو يشعر ان الآخرين ليسوا مجرد وجود خارجه ، ومنفصل عنه ، وانما هم امتداد له ، يهمه امرهم ، كما يهمه امر نفسه .. وقد قال المصطفى : (من لم يهتم

بأمر المسلمين ليس منهم) .. وحياة النبي الكريم تجسيد للرهافة، ورقة الشعور، وقد قال عنه القرآن: (لقد جاءكم رسول من انفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم ..) ..

والامثلة من السيرة، على شدة اهتمام النبي بالمؤمنين، وحرصه عليهم، وعلى رهافة حسه، لا تحصى، ويمكن ان تراجع في كتب السيرة .. ويمكن ان نورد هنا قوله: (لا يشتاك احدكم الشوكة الا وجدت المها) ..

والمعاملة المجودة لا تكون الا عن وعي، وفكر حاضر، ومتيقظ .. فلا مجال للمعاملة الحسنة مع عدم توفر الخيال القوي، الذي يتصور اذى الآخرين فيتجنبه، ويتصور منفعتهم فيسعى اليها .. وبداية المعاملة الحسنة النية الصالحة .. وادنى ما تقتضيه هذه المعاملة الفكر المحايد، الذي لا ينحاز للنفس ضد الآخرين، فانه مع الانحياز لا يوجد عدل .. والعدل هو قاعدة المعاملة: (ان الله يأمر بالعدل، والاحسان، وايتاء ذي القربى .. وينهى عن الفحشاء، والمنكر، والبغي .. يعظكم لعلكم تذكرون ..) .. وحياد الفكر ليس بالامر الجاهز عند كل فرد، بل على العكس من ذلك تماما فان انحياز الفكر هو الامر الجاهز عند كل نفس .. فلتحييد الفكر لابد من تجويد العبادة، ولابد من مراقبة النفس كي لا تلتوي بالفكر مع اغراضها واهوائها، ولابد من المران المتصل على الحياد .. وعن وسيلة اكتساب الفكر المحايد يقول تعالى: (يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ..) فالفرقان هو النور في العقل، يستطيع ان يميز به بين قيم الاشياء، تمييزا واضحا، لا لبس فيه، فيلتزم الحق، ولا يميل عنه، يمنة، ولا يسرة، وهذا هو الحياد .. فالتقوى اذن هي الوسيلة لتحييد الفكر ..

والفكر الدقيق المرن هو الذي يهب النفس، ويرقى بها

الى رحاب السلوك الانسانى ، بتخليصها من السلوك الحيوانى ، الذى يقوم على الانانية السفلى ، حيث الاسترسال مع اللذة العاجلة ، واتباع الهوى ، والعمل بالعادة ..

والاسلام ، فى مستوى السنة ، انما هو نهج لتحرير الفكر ، وتسديده ، وقد قال تعالى فى ذلك: (وانزلنا اليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل اليهم .. ولعلهم يتفكرون !!) .. فقوله: (وانزلنا اليك الذكر) ، يعنى القرآن كله .. وقوله: (لتبين للناس ما نزل اليهم) ، يعنى لتوضح للناس ، بالتشريح ، وبالتفسير ، ما نزل الى مستواهم من جملة القرآن .. قوله: (ولعلهم يتفكرون) تجعل الغرض من انزال القرآن ، ومن ارسال الرسول ، هو الفكر المستقيم .. وقد قال المعصوم: (تفكر ساعة افضل من عبادة سبعين سنة) .. ويمكن ان يقال ان الفكر هو السنة .. فقد كان النبى الكريم لا يعمل عملا ، او يتركه ، الا بفكر .. وهو القائل فى حديث: (اوصانى ربى بتسع اوصيكم بهن ..) .. (ان يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة) .. والسنة النبوية هى المنهاج لمحاربة العادة ، وايقاظ الفكر .. يجرى منها هذا فى ابسط المستويات ، وايسرها ، مما يستوى فى المشاركة فيه الامى الجاهل ، والمتعلم .. فقد كان النبى فى حركاته ، وسكناته ، يقدم الميامن على المياسر .. فهو اذا دخل بيت الخلاء ، مثلا ، يقدم شماله ، واذا خرج يقدم يمينه ، واذا دخل المسجد يقدم يمينه ، واذا خرج يقدم شماله ، وهكذا فى كل شئونه .. وبمثل هذا الصنيع البسيط يتحرك الفكر ، وينشط ، وتدخل فى الاعمال ، سواء اكانت عبادة ، او معاملة ، الروح .. وبهذه البداية البسيطة يسلك الانسان طريق الحكمة ، التى هى وضع الاشياء فى مواضعها ، وهى تقديم الفاضل على المفضول .. وهذه البداية البسيطة تتداعى الى اعلى القمم ، اذ ان العبودية ، وهى اعلى مراتب السلوك ، انما هى وضع الاشياء فى مواضعها ، وتقديم الفاضل على المفضول .. هى تقديم الرب

وتأخير العبد .. وقد سبق ان ذكر ان المعاملة ، فى قمتها ، هى تقديم الرب وتأخير النفس .. وتقديم امر الرب ، وتأخير هوى النفس .. وامر الرب هو دائما فى اتجاه التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .. فمظهر تقديم الرب فى السلوك العملى فى الحياة اليومية هو تأخير (الأنا) السفلى ، وتقديم (الأنت) .

ومن كل ذلك يتضح انه لتجويد المعاملة ، لابد من الفكر الدقيق ، المستقيم والمحايد .. وان نهج السنة هو السبيل لتحقيق هذا الفكر فى ادنى المستويات ، وفى اعلاها ، وهو لذلك الوسيلة الواسلة لتحقيق المعاملة المجودة ..

المرحلة الاولى من مراحل المعاملة

كف الاذى

ان ابسط صور المعاملة، وادناها هو كف الاذى عن الآخرين: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) .. (كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه، وان يظن به ظن السوء) .. والاذى يقع في ثلاثة مستويات، تتفاوت في الغلظة: اولها واغلظها، الاذى في مستوى الفعل، ثم الاذى في مستوى القول، ثم الاذى في مستوى الفكر، او الخاطر، وهذا ما اشار اليه الحديث بعبارة (وان يظن به ظن السوء) .. وكل هذه الصور من الاذى محرمة في الاسلام .. وصور الاذى التي تمارس في حياتنا اليومية لا حصر لها، ويمكن ان نعرض هنا بعض النماذج منها .

نماذج من الاذى :

يمكن ان يقال بصورة عامة، ان كل فعل، او قول، او خاطر، يتسبب في ضياع حق، مادي او معنوي، للآخرين، او يجرح احساس احد، او يقلل من مكانته، بصورة مباشرة، او غير مباشرة، هو من الاذى الذي ينبغي كفه .. ونحن قد نكون من الغفلة، ومن بلادة الحس، بالصورة التي نؤذي الآخرين دون ان نشعر بذلك ..

ونحن اذا نظرنا الى عاداتنا الاجتماعية نجد الكثير من صور الاذى للآخرين، فمثلا مناسبات الزواج نجد فيها المبالغة في المهور، والصرف البذخي الذي يحرج وضع غير المستطيعين، ويؤدي الى ازمة الزواج، بالصورة التي نراها اليوم، وكذلك الحفلات الصاخبة، والتي تستمر حتى الصباح، وبصورة لا يمكن للجيران ان يجدوا معها فرصة للراحة .. وحتى الحج لم يعد شعيرة دينية،

وانما مناسبة اجتماعية تقوم على التفاخر، والتباهي .. وفي الحج تتسم اكبر صور المفارقات الدينية من الربا، والرشاوى لاستخراج جوازات السفر، وتسهيل العمليات المختلفة .. وسلوك المواطنين في الاماكن العامة، وفي المركبات العامة، تتم فيه الكثير من صور الاذى، فأنت مثلا تجد الناس يتسابقون، ويتزاحمون على المركبات العامة، دون مراعاة للنساء، ولكبار السن، وللضعاف .. وانت تجد من يدخنون داخل المركبات العامة، والمزدحمة بالركاب، دون اى شعور بما يسببونه من ضيق، واذى، للآخرين .. ومن صور السلوك الشائعة، والتي تتسبب في الكثير من الاذى للآخرين، عدم الانضباط في المواعيد، فهذا من اسوأ صور المعاملة، التي تدل على عدم التمدين، وعلى المفارقة لقيم الدين ..

وهنالك الكثير من عادات سلوكنا الشخصي، تتم بصورة مؤذية للآخرين، فنحن عندما نبصق، او نعطس، يجب ان نراعي اعتبار الآخرين .. حتى الاكل، والشرب، واستخدام الاواني، وضمها يجب ان يتم بصورة غير مؤذية للآخرين . ومن صور الاذى، صور متعلقة بالانتاج، منها التقصير في اداء العمل، وفي تجويده، وعدم الحرص على مواعيده .. وهناك صور من الاذى متعلقة بالاستهلاك، باستخدام المال العام .. فقد انتشرت الاختلاسات وسرقة الادوات، وقطع الغيار، كما اشاع الاهمال، وسوء استخدام الممتلكات العامة، بصورة تؤدى الى اتلافها، او تودى الى صور من الصرف غير المبرر، الذي يرهق كاهل المواطنين .. فأنت اذا نظرت الى المكاتب، والمصانع، والورش، فانك تجد سوء تعامل مع الماكنات، والاثاثات، يتم بصورة دائمة، ويتسبب في اهدار الطاقات، وفي خسارة البلاد ملايين الجنيهات .. ان مجرد سوء التعامل مع الاشياء البسيطة في المكاتب، مثل اتلاف الورق، او سوء استخدامه بالكتابة على جزء بسيط من الورقة، ثم

رميها فى سلة المهملات ، ومثل الاهمال فى الدبوس ، هذه الاشياء التى تبدو بسيطة تتسبب فى اذى المواطنين ، واهدار حقوقهم بصورة كبيرة .. ومن المسائل المنتشرة فى المكاتب اليوم ، اضاءة الانوار بالنهار ، ودون حاجة اليها .. وتشغيل المراوح و (المكيفات) ، حتى عندما تكون المكاتب خالية ..

وانت لا تجد فئة من الفئات الاجتماعية ، عند ممارستها لعملها ، لا تهدر حقوق الآخرين ، وتتسبب فى اذاهم ، عن قصد او اهمال .. فنحن اذا اخذنا فئة التجار ، نجد انهم يتعاملون بالربا ، والرشوة ، ويتخذون شتى الوسائل ، والحيل ، غير القانونية ، للتهرب من واجباتهم الضريبية .. ويقومون بتهريب السلع الى داخل وخارج البلاد .. ويخفون السلع ليبيعوها فى السوق السوداء ، ويتلاعبون فى الكم والنوع بأساليب عديدة .. وكل ذلك مما يؤدى الى عدم الوفرة فى السلع ، وعدم الجودة ، ويتسبب فى الازمات الاقتصادية ، وفى الارتفاع الجنونى للاسعار .. وعلى ضوء هذه النماذج يمكن التفكير فى سلوك كل فئة ، اثناء تأديتها لعملها وما يتسبب فيه هذا السلوك من اذى للآخرين ، وضياع لحقوقهم .

هذه مجرد نماذج لسوء المعاملة ، والاذى للآخرين .. ويمكن للقارىء ان يفكر فى ما يتم على يديه من سوء معاملة واذى للآخرين ، فهو لا بد واجد العديد من الصور .. ويمكن له ان يفكر فى صور الاذى للآخرين المتفشية فى المجتمع ، فهى لاحصر لها ، على ان يكون تفكيره ، فى صور الاذى هذه ، ليستدل بها على ما يسببه هو نفسه من اذى للآخرين ، فيسعى جادا للتخلص منها .

اسلوب الاسلام فى التربية على كف الاذى :

ان اسلوب الاسلام فى التربية ، وتخليص الفرد من الخطيئة ،

وسوء المعاملة، يبدأ بالاسلوب العكسي .. ونهج السنة في التخلص من هذه العيوب، انما يقوم على المراقبة والمحاسبة .. فالسالك في طريق الله يراقب نفسه، في اول امره، ويحاسبها، لتترك عيوب العمل، وقد تكون في هذه الاثناء متورطة في عيوب القول، ولكنه يسمح بذلك كمسايسة للنفس، وتدريج لها، ثم هو بعد ان يتخلص من عيوب العمل، يزحف على عيوب القول، في الوقت الذي قد تكون فيه نفسه متورطة في عيوب الخواطر، ولكنه كتدريج لها يسمح لها بذلك ريثما ينتهي من عيوب القول، ثم هو اذا استطاع ان يضبط لسانه، واستقام له امره في ذلك، زحف على الخواطر، وعمل على تهذيبها، حتى يتخلص من الخواطر الشريرة فيسلم صدره من الوساوس، وتتنقى سريرته .. والخطيئة انما تبدأ في الخاطر ـ في الفكر ـ ولذلك فان تنقية الخواطر هو اقتلاع للخطيئة من جذورها .. والقرآن حين قال: (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) قد جعل ترك ظاهر الاثم وسيلة لترك باطنه .. فكأنه قال: (اتركوا ظاهر الاثم لتتمكنوا من ترك باطنه، لأن باطنه هو مصدر كل الشرور) .. والقرآن يطارد هذه الشرور حتى اغوار السريرة ليقضي عليها، وفي ذلك يقول تعالى: (وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله) او يقول: (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى) ..

وعن طريق كف الاذى بهذه الصورة التي ذكرناها، يتحقق للفرد شيء كثير من انسانيته، اذ يتخلص من الشراسة، ومن الاتجاهات العدوانية، التي هي صورة الحيوان في الانسان، وميراثه من عهد الغابة .. وبالتخلص من ظلم الآخرين يتحقق الامن للفرد وللجماعة، وهذا من معاني قوله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون) .. ولذلك فان كف الاذى بوجوهه في البنان الاول، لمصلحة الفرد

الذى يكف اذاه عن الآخرين، ثم هو لمصلحة الجماعة .. ورفع كل الذى ذكرناه عن كف الاذى، فانما هو بداية السلوك الاسلامى الصحيح، او سمّه السلوك الانساني .. وكف الاذى هو الحد الادنى من المعاملة ..

المرحلة الثانية من مراحل المعاملة

تحمل الاذى

المرحلة الثانية من مراحل المعاملة الانسانية الرفيعة، هي مرحلة تحمل اذى الآخرين .. وفي اتجاه تحمل الاذى، قبول عذر المعتذر مهما كان، والعفو عن المسيء، ومسامحته .. وهذا المستوى من المعاملة هو خطوة هامة في اتجاه تحقيق السلام بين افراد المجتمع، وهو لا يتأتى الا بعد عمل كبير في تجويد السلوك في العبادة وتحقيق التوحيد في مستوى تجويد وحدة الفاعل، حيث يرى الانسان في فعل الآخرين، وما يلحقونه به من اذى، فعل الله، ويحاول ان يفهم حكمته تعالى في فعله، فيتأدب معه تعالى، فلا يثور، ولا يغضب، ولا يحاول رد اعتداء المعتدي، وظلم الظالم، وانما يحاول ان يرضى، ويعمل على ان يجعل من الاذى الذي لحقه وسيلة لتربية نفسه، ولا يقتص من المعتدي فيفوت على نفسه الثواب الذي يمكن ان يناله اذا صبر على الاذى ..

وعن موضوع العفو عن المسيء، وعدم رد الظلم قال النبي الكريم: (اوصاني ربي بتسع اوصيكم بهن .. اوصاني بأن اعطي من حرمني، وان اصل من قطعني، وان اعفو عمن ظلمني) الى آخر الوصايا التسع .. وقال تعالى: (والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين) .. وقال تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها .. فمن عفا، واصلح، فأجره على الله ..) .. فالحد الادنى في المعاملة في الاسلام انما هو العدل، وهو هنا رد الاعتداء، دون زيادة، وهو امر قد نفر عنه القرآن، وسماه (سيئة)، ليمهد للعفو الذي ورد في بقية الآية (فمن عفا، واصلح، فأجره على الله، انه لا يحب الظالمين) .. وهكذا المستوى في العفو قد ورد في قول السيد المسيح: (احبوا

اعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا الى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم) .. الا ان قول القرآن اكمل من عبارة الانجيل، وابلغ .. وهو ايضا عملي، فانه هو يقوم على فهم طبيعة النفس البشرية التي لا تستجيب للعفو منذ البداية، وانما تحتاج الى منهاج لنقلها لهذا المستوى، وتحتاج الى تدريج، وقد اعطاها الاسلام المنهاج المتمثل في سنة النبي الكريم، ومهد لها ان تتدرج من قاعدة اولية هي العدل الى قمة رفيعة هي العفو والاصلاح .. فهو كما ورد في الآية، قد نهاها اولا عن الظلم و (ان الله لا يحب الظالمين)، ثم سمح لها بالقصاص، ونفرها عنه ليعدها للمرحلة الاكبر، فسماه في الآية (سيئة) .. ثم طالبها بالعفو، وحببها فيه، بأن ذكرها بالاجر الذي تجده عند الله ان هي عفت، (فمن عفا، واصلح، فأجره على الله) .. ثم دعاها لما هو اكبر من العفو، وهو الاحسان، وتوصيل الخير للمسيء، وهذا ما تفيده كلمة (واصلح) من الآية .. وفي آية اخرى يقول تعالى : (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

وصور تحمل الاذى، والعفو عن المسيء، وقبول عذر المعتذر، في الشمائل النبوية عديدة ولا حصر لها .. فهو صلى الله عليه وسلم مثلا عند فتح مكة عفا عن كفارها، الذين آذوه وقاتلوه .. وهو قد كان يتحمل اذى جاره اليهودي الذي كان يرمي بالاوساخ الى دار النبي يوميا، وعندما انقطعت الاوساخ لم يكن هم النبي ما انقطع عنه من اذى، وانما كان مشغولا بأمر اليهودي، وماذا عسى ان يكون قد اصابه، ولذلك ذهب يتفقده .. وقد ورد عن شمائله صلى الله عليه وسلم انه كان لا يواجه احدا بما يكره، ولا يجفو على احد مهما كان، ويقبل عذر المعتذر مهما كان فعله . وقال انس خادمه (خدمت رسول الله عشر سنوات، فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء تركته

لم تركته ؟ .. وكان بعض اهله اذا لامنى يقول دعوه فلو قضى شيء لكان) .. وصور الشمائل فى هذا الباب كثيرة يمكن الرجوع اليها فى كتب الاحاديث وكتب السيرة ..

المرحلة الثالثة من مراحل المعاملـــــة

توصيـــل الخـــــير

ان المعاملة الاسلامية المطلوبة ، هى اساسا خدمة الناس ، وتوصيل الخير اليهم ، فى اخلاص وتفان .. وهذا هو السبيل لتحقيق السعادة ، فان البحث عن السعادة بصورة مباشرة ، لا يوصل الا للتعاسة والشقاء ، فالسبيل الى اسعاد انفسنا انما هو يقع فى اتجاه اسعاد الآخرين .. وقد سبق ان ذكرنا ان التربية فى الاسلام انما تبدأ بالأسلوب العكسى ، بأن يترك السالك عيوب العمل ، ثم عيوب القول ، ثم عيوب الخواطر .. فان هو استقام له امره على خير ما يحب ، وسلم صدره من الوساوس ، وتنقت سريرته ، يبدأ الاسلوب الطردى ، فيكون اغلب نظر الانسان بعد ذلك الى داخله ، بعد ان كان مشغولا بالخارج ، وعند ذلك توشك المطابقة ان تتم بين السيرة والسريرة ، فنقاء السريرة ينعكس فى استقامة السيرة ، وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة .. والاسلوب الطردى فى توصيل الخير للناس يبدأ بالفكر ، بأن يظن الانسان بالآخرين خيرا ، فان حسن الظن بالناس ، من حسن الظن بالله .. ثم ينوى توصيل الخير اليهم ، وينشغل بالتفكير فى اساليـــب توصيل الخير .. ثم هو بعد ذلك ينتقل الى القول ، فلا يقول الا خيرا ، والوصية النبوية فى ذلك تقول : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، او ليصمت ..) .. ويقول تعالى : (وقولوا للناس حسنا) .. ثم هو بعد ذلك ينتقل الى مرحلة الفعل ، فلا يفعل الا خيرا ، (الخلق عيال الله فأحبهم اليه

الله انفعهم لعياله) .. و (أحب الاعمال الى الله اغاثة الملهوف) .. (واصلاح ذات البين) .. و (يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) .. و (لا خير فى كثير من نجواهم الا من امر بصدقة ، او معروف ، او اصلاح بين الناس) ..

وتقديم الخير يبدأ بالاهل ، والعشيرة : (خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهلى) ، ثم الاولى فالاولى ، الى ان يعم الناس جميعا فـ (الخلق عيال الله ، فأحبهم الى الله انفعهم لعياله) ثم بعد ذلك توصيل الخير للاحياء والاشياء .

وعن طريق الاسلوب العكسى ، والاسلوب الطردى فى التربية ، يرقى الانسان مراقى السلوك ، وغايته ان يتخلق بأخلاق الله . كما هى وصية المعصوم : (تخلقوا بأخلاق الله ان ربى على سراط مستقيم) .. وكما جاء فى القرآن : (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون) .. وسبيل الانسان الى ذلك ، تجويد العبودية ، وعندها يصير الانسان خيرا محضا .. والمقامات التى يرقى فيها السالك ، فى تحقيق انسانيته ، وتجويد معاملته للآخرين تبدأ من المؤمن العادى ، ثم الورع ، ثم صاحب اليمين ، ثم البر ، ثم المقرب .. وعند مرتبة المقربين يتحقق قدر كبير من تجويد المعاملة ومن تحقيق انسانية الانسان .. فمن المقربين ، جاء بكتابنا (تعلموا كيف تصلون) ما نصه : (والمقربون هم الذين يكونون عند ربهم ، غالب احوالهم ، وهم علماء ، قد وسع العلم عليهم ما ضيق الجهل على سواهم .. فأصبحوا ، بفضل الله ، ثم بفضل سعة علمهم ، رحماء ، طيبين ، متسامحين ، محبين للأشياء والاحياء ، فى سلام مع ربهم ، ومع انفسهم ، ومع الناس .. يدعون الى الرضا بالله ، والصالحة مع الناس ، وينشرون الحب ، كما تنشر الشمس النور ، والحرارة ، والدفء .. هؤلاء هم ملح الارض عرفوا او لم يعرفوا .. وتقوى هؤلاء هى عمل ، او ترك للعمل ابتغاء وجه الله .. وزمنهم فكر متصل .. فجمعى اوقاتهم معمورة بالفكر ، والعمل ..

وفكرهم ليس تعملا، وانما اصبح طبيعة، تنبع فيهم المعانى، والمعارف، كما ينبع الماء النمير من العين الثرة، وقد تطهرت من اوساخها، واوضارها .. وعبادة المقربين الاستقامة، والاستقامة ان تكون على الصراط المستقيم، فى الفكر، والقول، والعمل فلا تميل يسرة ولا يمنة) .. هذا مستوى رفيع من تحقيق الانسانية، ومن تجويد المعاملة، يحققه منهاج الاسلام للافراد .. وليس لتجويد المعاملة حد فيقف عنده، وانما هو التسامى المستمر، لانه حركة من المحدود الى المطلق، فكما ذكرنا فان الغاية هى التخلق بأخلاق الله، وهى فى الاطلاق، وليس للاخلاق نهاية فتبلغ، وكذلك ليس لتجويد المعاملة حد فينتهى عنده ..

خاتمـــــــة :

لقد ذهبنا فى كتابنا هذا عن (تعلموا كيف تتعاملون) الى تبيين واقع المعاملة الحاضرة التى يعيشها عالمنا المعاصر، فى جميع بقاعه، بما فيه بلادنا الاسلامية وسودانا .. وقدمنا النماذج لسوء المعاملة، وفساد الاخلاق، لنخلص الى ان ازمة الانسانية المعاصرة، وفى جميع بقاع الارض، انما هى ازمة اخلاق .. وكل الازمات الاخرى، ما هى الا انعكاس لهذه الازمة، وتعبير عنها .. وفى الوقت الذى نعيش فيه فى ازمة اخلاق طاحنة فان بيئتنا تطالبنا بمستوى جديد، ورفيع، من الاخلاق، ومن حسن المعاملة .. وذلك لأن التقدم التكنولوجى فى وسائل المواصلات، وسبل الاتصال، قد وحّد كوكبنا الارض، وقرب المسافات فيه، بالصورة التى اصبح الناس معها، فى جميع بقاع الارض، يعيشون وكأنهم جيران، الامر الذى يقتضى ان تقوم علاقتهم على حسن الجوار، فتنبنى على التعاون، والتسامح، والمحبة والسلام .. كما ان التطور الرهيب فى صناعة السلاح، جعل الحرب الحديثة، اذا نشبت ـ لا قدر الله ـ تعنى الفناء .. ولذلك اصبح السلام، ولأول مرة، ضرورة حياة او موت ..

وبذلك يتضح ان هناك تناقضا حادا ، بين بيئتنا هذه الجديدة ، وما تقتضيه من مستوى رفيع من حسن المعاملة ، والسلام ، وبين واقعنا هذا الذى لا شىء فيه أوضح من سوء المعاملة ، فى كل المستويات ، ومن الصراع والاحتراب .

وهذا التناقض بين واقع الناس ، وبين مقتضيات البيئة الجديدة ، هو اكبر اعلان عن افلاس الحضارة الغربية ، المادية ، التى تسود العالم اليوم ، وهو افلاس يعلن عن فشل هذه الحضارة ، وبصورة نهائية ، عن توجيه مسيرة الحياة على الارض . فهى لن تفرز ، بعد اليوم ، الا المزيد من الازمات ، والمزيد من التناقضات .. وهذا الوضع يقتضى قيام مدنية جديدة ، تعالج ازمة الاخلاق القائمة اليوم ، وتستوعب طاقات الحياة المعاصرة ، وتحل مشكلاتها .. وقد وضحنا فى متن الكتاب ان هذه المدنية لا يتوفر عليها الا الاسلام فى مستوى اصوله .. فهو يعطى التصور الصحيح لطبيعة بيئتنا الطبيعية ، والاجتماعية ، مما يعين على التواؤم معها .. والاسلام يعترف بطبيعة النفس البشرية ، ويوجد الدافع الداخلى ، لحسن المعاملة ، وخدمة الآخرين .. وذلك لأنه يجعل مصلحة الفرد ، وسعادته ، تتحقق عن طريق التخلص من انانيته السفلى ، والعمل على خدمة الآخرين ، واسعادهم ، ثم هو يعطيه المنهاج العملى لتحقيق كل اولئك .. وهذا ما يحل التناقض البادى بين الفرد والجماعة ، وهو الامر الذى فشلت فى تحقيقه جميع الفلسفات والاديان ، مما يجعل الاسلام يتفرد بالمقدرة على حل مشكلات الانسانية المعاصرة ، بالصورة التى تجعله هو المرشح الوحيد لتقديم المدنية الجديدة المطلوبة ، مدنية تحقق السلام فى كل نفس ، وفى الارض قاطبة .

ونحن فى هذا الكتاب قد تحدثنا ايضا عن آفات المعاملة ، وعن الاسباب التى تؤدى الى سوء المعاملة ، وردد ناها الى مصدرها الاساسى داخل النفس البشرية .. فقد بينا ان الجهل

والخوف ، هما السببان الاساسيان لسوء المعاملة .. كما وضحنا منهج الاسلام في تخليص الافراد من الخوف ، ومن الجهل ، وبالتالي من انحرافات الاخلاق ، وسوء المعاملة .. وقد ركزنا على توضيح العلاقة بين العبادة والمعاملة في الاسلام .. وبينا كيف ان المعاملة في الحقيقة عبادة ، بل هي ثمرة العبادة وخلاصتها ، فكل عبادة لا تثمر في حسن المعاملة هي عبادة لا قيمة لها ، وعلى صاحبها أن يسعى الى تصحيحها .. فالعبادة المجودة تعين على المعاملة ، والمعاملة المجودة تعين على العبادة ..

ولقد كان هنا التوفيق بين ان يعالج كتابنا القضايا الاصولية في المعاملة ثم ، في نفس الوقت ، يكون كتابا شعبيا ، يعين كل فرد ، مهما كان حظه من التعليم ، على ان يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين .. ولذلك اوردنا نماذج من الانحرافات ، ومن صور سوء المعاملة المتفشية في مجتمعنا السوداني ، لنفتح ذهن القارئ عليها ..

ثم قدمنا منهاج السنة ، في تقليد النبي الكريم ، في اسلوب عبادته واسلوب عادته ، كمنهاج علمي ، وعملي ، يفضي الى تجويد المعاملة .. وهو منهاج يقوم على الفكر والعمل .. ثم هو منهاج بسيط ، وفي متناول كل الناس .. فالنبي الكريم ، هو نموذج الانسان الكامل ، الذي عرف كيف يتعامل مع الله ، ومع الاحياء ، والاشياء .. فعن طريق تقليده ، وصب انفسنا في قالبه ، نحقق نحن كمالاتنا ، ونتعلم كيف نجود المعاملة .. وهو تعلم مستمر ، لا يقف التجويد فيه عند حد ، فان الله قد كتب الاحسان على كل شيء .. ونحن قد اوردنا بعض النماذج ، لحسن المعاملة في المستويات المختلفة ، من الاحاديث ومن الشمائل النبوية ، وهي نماذج على سبيل المثال ، وللاستزادة يمكن الرجوع الى كتب الاحاديث وكتب الشمائل .. ولضرورة تناسب

منهاج السنة في تجويد العبادة، والمعاملة يمكن الرجوع الى كتابينا (طريق محمد) و (تعلّموا كيف تصلّون) ..

ولقد حاولنا في متن الكتاب ان نبين، بايجاز، مستويات المعاملة الثلاث في كف الاذى، وتحمّل الاذى، وتوصيل الخير للناس .. كما حاولنا ان نعطي القارئ، بعض القواعد الذهبية، لتجويد المعاملة مثل، الاهتمام الدائم بأمر الآخرين .. ومعاملة كل فرد كغاية في ذاته .. وتأخير النفس، وتقديم الآخرين، وتحييد الفكر، والانشغال بعيوب النفس، بدل الانشغال بعيوب الآخرين، فقد جاء في قول النبي الكريم: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وانفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من قوله) الى آخر هذه القواعد السلوكية، التي اوردنا بعضها في متن الكتاب، لتعين على تجويد المعاملة.

نحن نرى ان هذا الكتاب موجز اشد الايجاز، وهو لا يستطيع ان يوفي جوانب المعاملة المختلفة حقها .. ولكي تصبح الصورة متكاملة لا بد لنا من اخراج بعض الكتيبات من سلسلة (تعلّموا كيف) تتناول قضايا محددة، من قضايا المعاملة المختلفة .. الامر الذي يعين على اشاعة التوعية، والتربية، الشعبية.

فنرجو الله ان يتقبّل منّا، وان يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه، وان يعيننا على اخراج هذه الكتيبات التي وعدنا بها، والله المستعان ..

هذا الكتاب

* أزمتنا أزمة أخلاق !!
* ما السبيل ؟!
* المعاملة ماهى ؟!
* العبادة والمعاملة
* المعاملة ثمرة العبادة وخلاصتها
* المعاملة هى الصلاة الوسطى !!
* للمعاملة الحسنة لابد من محاربة الخوف
* الفكر هو روح المعاملة
* مراحل المعاملة الثلاث

أ- كف الاذى

ب- تحمل الأذى

ج- تفضيل الخير

الثمن ١٠٠